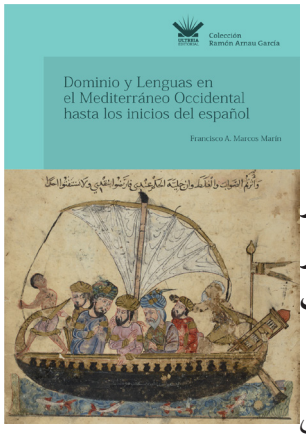

Francisco A. Marcos Marín.- *Dominio y Lenguas en el Mediterráneo Occidental hasta los inicios del español* (Valencia, ULTREIA, IVEMIR-UCV Colección: Ramón Arnau García, 2023), 276p.

فرانسيسكو ماركوس مارين.– الهيمنة واللغات في غرب البحر الأبيض المتوسط حتى بدايات اللغة الإسبانية (بلنسية: دار نشر أولتريا، الجامعة الكاثوليكية ببلنسية، معهد إسابيل دي بيينا لدراسات القرون الوسطى وعصر النهضة، 2023)، 276ص.

يعود هذا الكتاب وأصله رسالة بحثية مفصلة، ليثير موضوعا ذي أهمية كبيرة فيما يخص قضية العلاقات التواصلية واللغوية والعقائدية

بين شمال البحر الأبيض المتوسط في شقه الغربي والمغرب الأقصى. وقد يلاحظ الباحث في التاريخ أن هناك بعض التساؤلات التي لم يجب عليها النص التاريخاني سواء كان إسبانيا أو عربيا. فهل كانت هناك قطيعة، قبل سنة 711 م بين شبه الجزيرة الإيبيرية وشمال إفريقيا، وأن سكان العدوتين لم يكونوا يعرفون شيئا عن بعضهم البعض، أم أنه على العكس من ذلك، كانت هناك معرفة وتواصل من كل الأنواع وخاصة منها على الصعيد اللغوي؟ هل من دخلوا هذه الأراضي الإيبيرية —سواء كان فتحا، كما يسميه العرب والمسلمون أم غزوا، كما يسميه الكاتب— لم يكن لهم أي تواصل مع أهلها إلا بحد السيف؟ وإذا كان قد حصل هذا التواصل، فهل كان مباشرا أم عبر التراجمة؟ ثم ماذا عن الدين، ما هو دين تمزغا قبل الإسلام، وهل كان هناك دين موحد فيما اصطلح على تسميته فيما بعد إسبانيا، باعتبارها كيانًا سياسيًا وإيديولوجيًا، وليس بوصفه أرضًا قائمة في رقعة جغرافية؟ ثم ما علاقة الأديان والطوائف (الجماعات الخارجة عن الكاثوليكية) المسيحية فيما بينها، وما تأثيرها في شمال إفريقيا؟

مثل هذه الأسئلة وغيرها، طرحها صاحب هذا العمل للبحث والتقصي في هذا الكتاب، ويمكن تلخيصها في شقين اثنين؛ أولهما التواصل اللغوي والعلاقات اللغوية بين شمال حوض البحر المتوسط الغربي وجنوبه، وثانيهما خارطة الأديان المسيحية وتفاعلها والمنافسة بينها، بل ما سر الحروب الضروسة بينها في أرض تمازغا. خاصة وهو ينطلق من الخلفية المنطقية التي تفاجئ القريب قبل البعيد، وهي كما ذكر في أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه: ”ومن الجدير بالذكر أن التنصير في هسبانيا —وهو الاسم الذي خلده الفينيقيون على ما يبدو لشبه الجزيرة الإيبيرية، قبل إنشاء دولة إسبانيا بالمفهوم المعاصر— بدأ في أفريقيا، وأن العلاقة بين الكنيسة الهسبانية والكنيسة الأفريقية (وقاعدتها في قرطاجنة) كانت قوية جدًا، (69).“

يبدو من هذا، أن التأثير المسيحي بين الضفتين، هو عكس المعتقد العام، ليس من الشمال إلى الجنوب، بل العكس صحيح، أي من الجنوب إلى الشمال، وهذا ما يدفع إلى إعادة قراءة حقبة

سنة 711م وما قبلها. هل من فتح هيسبانيا أو غزاها كل حسب خلفياته هم العرب الذين لم ينزلوا عن صهوات جيادهم إلى أن قطعوا مضيق جبل طارق، أم هم من أبناء شمال أفريقيا من سكان تمازغا الذين أسلموا، وكانوا يتحدثون اللاتينية في بعض الأحيان، واللهجة الأفريقية الرومانية المتفرعة عن اللاتينية؟ وهذه الفكرة قد تبدد شكوك بعض علماء الآثار في جنوب البحر المتوسط، ولا زال كاتب هذه السطور يتذكر عندما عاد الى البيت ووجد زمليه الباحث في الآثار مكفهرا: ''هؤلاء عندما يجدون قطعة خزف في المغرب، وأخرى في إسبانيا يزعمون أنها انتقلت من الشمال إلى الجنوب، فلماذا لا يفكرون أبدا أنه قد يكون العكس؟.''

لو افترضنا أن هذا الكتاب كان موجودا وقتئذ لحسم الأمر، فإذا كان هناك مشترك عقائدي ولغوي، وأن التأثيرات كما ذكر سابقا بعضها من الجنوب إلى الشمال، لكان سهلا لصديقي أن يبرهن على أن قطع الخزف وأشياء أخرى، قد رحلت من اللكسوس في المغرب إلى هنا، وليس العكس.

وعن موضوع التواصل اللغوي بين شمال المتوسط الغربي وجنوبه، يقول الكاتب في معرض مؤلفه بأنه: ''فيما يتعلق بالجزء الأفريقي، فإن حداثة هذه الدراسة، خاصة بالنسبة لدارسي اللغات الرومانية من جهة، والمستعربين من جهة أخرى، هي نقل الاقتناع القائل، بأن استمرارية اللغة اللاتينية في شمال إفريقيا، يمكن إثباتها حتى وقت أبعد من رمزية 711، وأنه في سياقات السلسلة المعقدة من اللغات التي جلبها احتلال شمال إفريقيا إلى هسبانيا، والانتصار اللاحق للغة العربية والإسلام، يقع في نفس مجال اللغات الأفروورومانسكية (187).'' وهذا يدل ليس فقط اعتمادا على قول ماركوس مارين، بل على كثير من الباحثين والدارسين اللذين استدل بهم وذكرهم في هوامش كتابه، على وجود أرضية للتخاطب والحوار بين شمال أفريقيا وهيسبانيا. وأن تعريب هذه المناطق وأسلمتها، لم يقضيان بين عشية وضحاها على اللغات المحلية المستعملة، ولا على بعض الديانات والمعتقدات السابقة ومنها المسيحية على الخصوص.

أما فيما يتعلق بالأمازيغية، فيقول ماركوس مارين: ''إن العلاقة المتبادلة بين اللاتينية والأمازيغية، تستحق صفحات عديدة وتؤدي إلى استنتاجات قد تكون ذات أهمية حول عملية الاقتراض المعجمي. وحدث الشيء ذاته مع لغة الوندال، وعلى هؤلاء تم تقديم دليل لا يقبل الجدل حول استخدامهم للغة اللاتينية، (14).''

ولا يشك الكاتب في جدلية التَّماس والتلاقح بين اللاتينية المستعملة في شمال إفريقيا والأمازيغية من جهة، وبين ذات اللاتينية والوندالية من جهة أخرى، على اعتبار أن الوندال جاءوا من شمال أوروبا بعيدا عن محور التأثير الروماني اللاتيني. وللإشارة، فإن هذه الشعوب الشمالية لم تقف عند الحدود الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط، بل تعدته بعيدًا إلى أراضي تامزغا. وهذا يدل مرة أخرى على أن لغات الشمال المتوسطي، لم تكن غريبة عن سكان الجنوب، وبالتالي فانتقال سكان الجنوب باعتبارهم مسلمين فاتحين كانوا أم غزاة كما يسميهم الكاتب، لم يكن انتقال غزاة لا علم لهم لا بلغة ولا بجغرافية ولا بالبنية العقائدية والاجتماعية لهسبانيا. بل يجب مراجعة هذه المعلومات التي لا تخلو منها كتب التاريخ الرسمية.

مما لا شك فيه، ومن زاوية نظر الكاتب، أنه كان هناك تواصل لغوي بين سكان الضفتين: ''من الضروري ترسيخ الفكرة التي مفادها أن اللاتينية مرت بعملية طويلة حتى لم تعد تُستخدم في شمال إفريقيا، ولهذا السبب فإن الإجابة على سؤال ما هي اللغة التي استخدمها اللاتينيون والبربر المسلمون للتواصل، لها إجابة بسيطة، وهي اللاتينية، في متغيراتها الإيبيرية الرومانية والأفرو رومانسكية'' (ص. 15).

وبناء على هذا، يتعين مراجعة تاريخ دخول الإسلام إلى هسبانيا، سواء من قِبل المؤرخين الإسبان الحاليين، أو من قِبل المؤرخين العرب؛ حيث لم تكن لغات شبه الجزيرة الإيبيرية ولا دياناتها مجهولة عند أمازيغ شمال افريقيا الذين كانوا قوام الجيش الإسلامي وضباطه وقادته ممن دخلوها فاتحين أو غزاة (حسب اختلاف التسميات بين المسلمين والمسيحيين).

أما الشق الثاني، فيتناول موضوع التواصل الديني بين شمال المتوسط الغربي وجنوبه، منذ التمكن من اللغات في غرب البحر الأبيض المتوسط، حتى بدايات اللغة الإسبانية، والعلاقة المتأزمة والدموية أحيانا بين الكاثوليكيين والأريسيين؛ فالجماعة الأولى تنزع صفة المسيحية عن الثانية، لأنها موحدة بالمفهوم الإسلامي، أي أنها لا تؤمن بألوهية المسيح، وهي والحالة هذه أقرب إلى الإسلام منها إلى الديانة الكاثوليكية، رغم أن الكاتب لم يتطرق إلى ذلك، كما لم يتناوله بالدراسة الكثير ممن اهتموا بدراسة الفتح/الغزو الإسلامي لهسبانيا. فالأريسيون كان لهم دور مهم جدا يقتضي الحال تعميق البحث فيه، خاصة ما بين سنتي 711 و718، حيث كان وصول المسلمين إلى شمال شبه الجزيرة الإيبيرية.

أما عن الخلاف العقائدي بين الكاثوليک والأريسيين، فيعود به ماركوس مارين إلى ما قبل سنة 711 بكثير، كما ذكر في رسالته للدكتوراه الثانية المعنونة بـ: ''الشعوب واللغات والتغير الثقافي في غرب البحر الأبيض المتوسط من القرن الخامس إلى القرن العاشر،'' والتي نوقشت في جامعة الكومبلوتينسي سنة 2023: ''في عام 439، نزل الوندال في أفريقيا، واستولوا على الفور على المنطقة، حيث حاولوا، بعد لحظة أولى اتسمت باهتمامات أخرى غير دينية، فرض الأريسية أو الأريوسية، وهي طائفة مناهضة للثالوث أسسها أفريقي يدعى آريوس. أدى الاضطهاد الأريوسي للوندال هونيريک، الملک من 25 يناير 477، إلى اجتماع الأساقفة المسيحيين الكاثوليک (أي الثالوث أو النيقية)، في قرطاج، والذي انعقد بموجب مرسوم صادر بتاريخ 19 مايو 483، في فبراير من العام اللاحق، مما سهّل طرده. وأظهرت النتائج أن الظروف التي وقع فيها تنفيذ ذلک كانت قاسية للغاية؛ ففي عام 484، بقي 574 أسقفًا، من حوالي 675 تم إحصاؤهم في 430. علاوة على ذلک، لم يستجيب 106 أساقفة للدعوة، ولم يتمكن سوى 18 من الهروب منهم. ومن بين 164 أسقفًا في الولاية القنصلية (بين تونس الحالية وغرب ليبيا) في عام 411، بقي 54 في عام 484 وثلاثة فقط في عام 487 (120).''

ويعبر هذا الاقتباس من رسالة دكتوراه ماركوس مارين الثانية والتي ناقشها قبل سنة، —وهو ناضج علميا وفكريا بعد تقاعده من الجامعة—، عن الخلفية الفكرية والعلمية والعقائدية للكاتب، والتي سبق له أن عبر عنها ليس فقط في هذا الكتاب، بل في كثير من بحوثه المنشورة.

وخلاصة القول، فإن قراءة كتاب **الهيمنة واللغات في غرب البحر الأبيض المتوسط حتى بدايات اللغة الإسبانية،** تستدعي من القارئ مراجعة معارفه التاريخية حول فتح الأندلس أو غزو هسبانيا، كما يفضل سكان العدوة الشمالية تسمية نفس الحدث التاريخي. وخاصة فيما يتعلق بدخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وسهولة غزوها، مما يدل على أن سكان شمال إفريقيا، أو هذا الجزء الغربي من تمازغا خصوصا، كانوا على معرفة جيدة بسكان الضفة المقابلة من البحر المتوسط على المستوى العقائدي، سواء تعلق الأمر بالمسيحيين الأريسيين، أو بالمسيحيين الكاثوليک، وعلى المستوى اللغوي أيضا، فيبدو كما ذكر الكاتب أنهم كانوا يتكلمون اللغة ذاتها.

محمد المذكوري المعطاوي
جامعة الأوتونوما بمدريد